

## الفصل الثالث

هجرة النبي -- الفتن في المدينة -- الوثيقة  
١ - ١٠ هجرية (٦٢٢ - ٦٣٢ م)

استقبل أهل يثرب «محمدًا» صلى الله عليه وسلم وأصحابه المهاجرين استقبالا حماسيا منقطع النظير، واستبدلوا اسم «يثرب» باسم مدينة «النبي» التي عرفت فيما بعد باسم المدينة على سبيل الاختصار. وتقول لنا الرواية العربية إن النبي (ص) لما استقر بها شيد فيها مسجداً من الآجر والتراب، وسقفه بسعف النخيل. ومن المأثور أنه عمل أيضاً بيديه الكريمتين في بناء ذلك المسجد المتواضع الذي أخذ يبشر فيه بدين الفطرة الجديد، كذلك لم يكتف بتعليم الناس عظمة الخالق ووحدانته فحسب بل راح أيضاً يضع الدساتير الأخلاقية السامية، ويبشر بالأخوة والبر باليتامى وأبناء السبيل.

وفي تلك الآونة كان يسكن «يثرب» الأوس والخزرج وهما قبيلتان كان الخلاف قد استحكمت بينهما منذ عهد بعيد، فلم يلبث الرسول أن قضى على تلك البغضاء القديمة، وأطلق على أهل المدينة الأصليين اسم الأنصار، كما أطلق على المسكين الذين وفدوا معه اسم «المهاجرين».

ولا يخفى أن العرب لم يكن لهم في ذلك الحين نظام أو قانون، بل كانت الجزيرة تعصف بهاريج الخصومات والمنازعات، وتعيث فيها الفتن والفوضى، فأقدم محمد (ص) على وضع نظام ثابت للمدينة، وأسس إدارة<sup>(١)</sup> قوية الدعام

(١) وضع الرسول أساساً للحضارة الجديدة وتلخص فيما روى عن علي بن أبي طالب أنه سأل رسول الله عن سنته فقال: «المعرفة رأس مالي، والفعل أصل ديني، والمحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم =

كما وضع الصحيفة التي قضى فيها على الفوضى والشحناء ، وسأوى اليهود الذين كان يعيش منهم عدد غير قليل في المدينة وضواحيها ، بالمسلمين في الحقوق على أن ينصروهم على أعدائهم .

وفي هذه الظروف التي جئنا على ذكرها أصبح « محمد » ( صلى الله عليه وسلم ) لا داعياً للدين الجديد فحسب ، بل رئيساً أعلى للمدينة التي دعاه أهلها إلى العيش بين ظهرانيهم ، ووكلوا إليه حمايتهم ، فأبجهم في مبدأ الأمر إلى القضاء على الخصومات ، ولكن ما هي إلا برهة حتى سخط المكيون على أهل المدينة لإيوائهم الرسول وأتباعه الذين كانوا في نظرهم شرذمة قليلة من الثوار ، واستحكم الخلاف بين الفريقين حتى نشبت أول معركة بينهما في واد يقال له « بدر » على بضعة أميال من المدينة ، فانهزم المكيون شرهزيمة تاركين وراءهم عدداً غير قليل من الأسرى الذين أحسن المسلمون معاملتهم .

وقعة بدر

انقضت السنة الثانية في هدوء تام ، فيما عدا مناوشات طفيفة قام بها أهل مكة على المدينة ؛ فلما كانت السنة الثالثة أغار « أبو سفيان » بن حرب بن أمية أعظم منافسي بنى هاشم على أطراف المدينة في قوة كبيرة من قريش وحلفائها ، وكان المسلمون الذين تقدموا لصددهم قليلى العدد ، فنشب القتال بين الفريقين على سفح ( جبل أحد ) ومضى فيه المسلمون بهزيمة منكرة ، غير أن خسارة المكيين كانت فادحة بحيث لم يستطيعوا إعادة الكرة على المدينة فانسحبوا إلى مكة ، وأخذ اليهود الذين كانوا لا يزالون يقيمون في المدينة وفي القرى المحصنة في ضواحيها يثيرون الفتن والقتال حتى أصبحوا عنصراً خطراً على الدولة الناشئة ، كذلك كان نفر منهم يتجسس لحساب المكيين ، وكثيراً ما نجح عن مكائدهم

سنة ثلاث هجرية  
٢٦ نيسان  
م ٦٢٤

== سلامي ، والصبر دأى ، والرضا غنيمي ، والفقر نفري ، والزهد حرفتي ، واليقين قوتي ، والصدق شفيبي ، والطاعة حسي ، والجهاد خلتي ، وقررة عيني في الصلاة » .

(المعرب)

ووشاياتهم إراقة الدماء ، فأمر النبي بإجلاء قبيلتين من تلك القبائل اليهودية وهما بنو قينقاع وبنو النظير وكانا يسكنان في ضواحي المدينة .

وفي سنة خمس هجرية زحفت قريش في عشرة آلاف رجل على المدينة ؛ ولما لم يستطع المسلمون أن يحشدوا أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل حضروا خندقاً أمام القسم المكشوف من المدينة ، واعتمدوا في الدفاع في الأقسام الأخرى على بنى قريظة ، وهي قبيلة يهودية بقيت على ولائها للمسلمين ؛ وكانت تملك عدة حصون في جنوب المدينة غير أنها نقضت عهدها وانضمت إلى المكيين الذين كانوا يحاصرون المدينة ، ولكن النبي (ص) قاومهم مقاومة شديدة ؛ ويلاحظ أن العوامل الطبيعية كانت قد تضافرت مع المحصورين ضد القوة المغيرة إذ هطلت الأمطار وهبت العواصف فكفأت القدور وطرحت الأوعية وقتلت الخيول حتى تفرق شملهم .

بنو قريظة

وعندئذ رأى المسلمون أنهم لا يأمنون جانب تلك القبيلة اليهودية طالما هي تعيش بالقرب منهم إذ كان غدرها يؤدي حتماً إلى تدمير المدينة في أى وقت من الأوقات ، وفي الحال أمرهم النبي بالجللاء ، ولما رفضوا النزول على طلبه حاصرهم حصاراً شديداً حتى أجبرهم على الإذعان والتسليم دون قيد أو شرط ؛ غير أنهم عادوا وطلبوا أن يحكم فيهم « سعد بن معاذ » أحد الزعماء المشهورين وكان قد أصابته في المعركة السابقة جروح شديدة مات على إثرها في اليوم التالي . ومن سوء حظ تلك القبيلة أنها طلبت تحكيمه ؛ بالرغم مما عرف عنه من صعوبة المراس وقوة الشكيمة ؛ ولا سيما أن قلبه كان يضطرم سخناً وموجدة عليها لغدرها الشائن ففضى عليها بقتل رجالها وسبي نساها وأطفالها .

ولعل هذا الحكم يبدو الآن صارماً غير أنه لم يكن في الواقع إلا شيئاً عادياً إذا قيس بقوانين الحروب التي كانت نافذة في ذلك الحين .

ومذ منيت « مكة » بهذا الفشل المريع أخذ الدين الجديد ينتشر ويمتد

سلطانه في شبه الجزيرة كما أسرعت القبائل تقلع الواحدة بعد الأخرى عن شركها وتدخل في دين (الإسلام)<sup>(١)</sup> أفواجاً .

وثيقة النبي

وفي سنة ستة هجرية أعطى النبي (صلى الله عليه وسلم) رهبان دير « سان كترين » خصوصاً والنصارى عموماً وثيقة تعتبر آية من آيات التسامح والتساهل وهي تنص على رعاية حقوقهم وعلى منحهم الامتيازات والوفاء لهم بالعهود ، وقد أزم فيها المسلمون الذب عن النصارى وحمايتهم من الأذى وصيانة كنائسهم وأسقفياتهم ، وألا يحملوهم بالخراج إلا ما طابت له نفوسهم ، وألا يخرجوا أسقفاً من أسقفيته ، ولا راهباً من رهبانيته ؛ وألا يحولوا بينهم وبين هوى دينهم ، وألا يمنعوا حاجاً من أداء فريضة الحج ، وألا يهدموا كنائسهم أو بيعهم ، وألا يدخلوا من مال كنائسهم في بناء مساجد ، وألا يحملوا على الرهبان والأساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة ، وأن يعاونوهم في إصلاح الكنائس والأديرة ويحفظونهم تحت جناح الرحمة ويكفوا عنهم أذية المكروه حيثما كانوا وحيثما رحلوا .

البعوث إلى  
الخارج

كذلك بعث النبي (ص) وفوده إلى إمبراطور الروم وملك الفرس يدعوها إلى الإسلام فأحسن الأول استقبال الوفد بينما أساء الثاني معاملته ؛ كذلك أرسل وفداً آخر إلى أحد أمراء النصارى التابعين للدولة البيزنطية على مقربة من دمشق فسخط الأمير عليه وفتك به .

وقعة خيبر

وفي سنة سبع هجرية ثار يهود خيبر على المسلمين بيد أن النبي قمع ثورتهم في الحال ولكنه أقرهم على أراضيهم وأملاكهم ودينهم ، على أن يدفعوا الجزية للمسلمين عن يد وهم صاغرون ، ثم عقد مع أهل مكة عهداً يسمح فيه للمسلمين بزيارة الكعبة وبموجبه أخلى السكان بلادهم حتى لا يحتكوا بالمسلمين ،

(١) الإسلام معناه السلام ؛ ولذلك جعل مقابلاً للجهل وهو السقه . ويؤيد هذا المعنى تفسير الرسول (ص) للمسلم بأنه من سلم الناس من يده ولسانه . (المعرب)

وبعد ثلاثة أيام عاد كل إلى بلده ؛ ولكن لم تكفتمضى برهة حتى هم أهل مكة مع بعض حلفائهم على قبيلة محالفة للمسلمين ، وفتكوا بعدد غير قليل منها ، فأنفذ الرسول إليهم في الحال جيشاً قدره عشرة آلاف مقاتل ؛ وفيما عدا مناوشات طفيفة دخل المسلمون مكة دون مقاومة . وهكذا رجع «محمد» (ص) ظافراً منتصراً إلى البلدة التي آذته وعذبتة وأصبحت الآن تحت رحمة ؛ ولكنه مع ذلك نسي في ساعة الظفر كل إساءة نالته وصفح عن كل أذى لحق به ؛ فأصدر أمره بالعمو العام عن أهل مكة<sup>(١)</sup> جميعاً . كذلك لم ينفذ حكم الإعدام إلا في أربعة مجرمين كانوا قد حوكموا لجرائم ارتكبوها عند دخول القائد المظفر مدينة أشد الناس لعداؤاً في خصومته : وقد حذا الجنود حذوه ودخلوا جميعاً مكة بسلام دون أن يتعرض أحدهم بأهلها . وقد قيل بحق : « لا يوجد في تاريخ الفتوحات على وجه الإطلاق فتح يعدو هذا الفتح المبين » ؛ وعندئذ أخذ أصحاب الرسول يمحطون الأصنام من غير ما شفقة ولا رحمة بمرأى ومسمع من المشركين ، فانبلج فجر الصدق وارتفع ذلك النداء الذي طالما ضحكوا منه وسخروا به يلعلع في الفضاء قائلاً : « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً » ألا ما أحقر هذه الأوثان التي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا . ! !

وتعرف سنة تسع هجرية في التاريخ الإسلامي بسنة الوفادة ، نظراً لقدوم عدد كبير من الوفود من جميع أنحاء الجزيرة تطلب اعتناق الإسلام ؛ فكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يكلف كبار الصحابة وزعماء المدينة بإكرام مشواهم وإنزاهم في ضيافتهم كما كان يردم مكرمين إلى بلادهم مزودين بنفقات السفر ،

(١) لما قضى النبي (صلى الله عليه وسلم) طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة فوقف محمد على بابها وتكاثرت الناس في المسجد فخطبهم ثم سألمهم يا معشر قريش ما ترون أني فعل فيكم قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ألا ما أجل العمو عند القدرة ! وما أعظم هذه النفس التي سمت فوق الحق والانتقام وبلغت من النيل فوق ما يبلغ الإنسان . (العرب)

والهبات التي كانت تمنح لهم حسب درجاتهم الاجتماعية وكثيراً ما كان يفقد معهم الوثائق التي تضمن لهم الامتيازات ، ويرسل معهم المعلمين لكي يفقهوم في فروض الدين ويطهروهم من رجس الوثنية ، وكان النبي (ص) دائماً يوصي هؤلاء الذين كان يرسلهم إلى مختلف الأمصار قائلاً : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا ؛ وإنكم ستقومون على قوم من أهل الكتاب يسألونكم ما مفتاح الجنة ققولوا هو قول الحق وعمل الخير »<sup>(١)</sup> .

ولما توات الوفود تترى على المدينة لاعتناق الإسلام وأحسن النبي أن مهمته قد كملت ، وشعر بقرب منيته ، عزم على أداء فريضة الحج . وفي الخامسة والعشرين من ذي القعدة سنة عشر هجرية (٢٣ شباط سنة ٦٣٢ م) سار يتبعه جمع زاخر إلى بيت الله الحرام فوصله في ٨ ذي الحجة ، وقبل أداء جميع مناسك الحج اعتلى جبل عرفات ونادى في الناس بهذه الكلمات التي لا تزال مطبوعة على قلوب المسلمين كافة .

خطبة الوداع « أيها الناس اسمعوا قولي ، فإني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً .

أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا .

وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت .

فن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

وإن كل ربا موضوع (أى مهدد) ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .

قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله .

(١) « شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » . (العرب)

وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب .

أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد ينس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه أن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب مفرد ، الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نساءكم حقا ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة بينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن اتهمين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً : كتاب الله وسنة رسوله .

أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه . تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم»<sup>(١)</sup> .

(١) ثم نزل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . (المغرب)

وبعد أن عاد الرسول إلى المدينة وجه عنايته إلى تنظيم شؤون البلدان والقبائل وبعث عماله إلى الولايات لتعليم أهلها فروض الدين ، وجمع الزكاة ، والفصل في المنازعات . وقد عرف في أيام مرضه الأخيرة بهدوء البال ، وصفاء الذهن ، مما أعانه على أن يصلى بالناس رغم ضعف جسمه وانحلال قوته . وفي ذات ليلة قبيل وفاته ذهب إلى مقابر المسلمين حيث يرقد أصحابه القدماء فيكلمهم واستغفر لهم وصلى عليهم ؛ ثم اختار أن يمرض في بيت عائشة لقربه من الجامع وظل يصلى بالناس حتى شوهد في المسجد لآخر مرة معتمداً على « علي بن أبي طالب » و « الفضل بن العباس » . ولما فرغ من صلاته قال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقر مني ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقر منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخشى الشحنة فهي ليست من شأني ؛ ثم دعا للحاضرين وترحم على الشهداء ودعا للمسلمين إلى التمسك بفرائض الدين والتعاون على البر والتقوى ؛ ثم ختم كلامه بقوله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » . وعندئذ عاد إلى بيت عائشة<sup>(١)</sup> فأخذ يزداد في كل لحظة ضعفاً ، وكأنه شعر بقرب النية فتوجه إلى الله يدعوه الهون ؛ وبينما كان يبتهل ، ارتفعت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى ، وكان ذلك ظهر يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول عام ١١ هجرية والمصادف ٨ حزيران عام ٦١٣ م . وفي خلال السنوات العشر التي رأس فيها شؤون المسلمين ، تطورت أخلاق الشعب العربي تطوراً محسوساً إذ كان لبعث الوفود إلى مختلف القبائل والمدن للفصل في الأمور

---

(١) وبعد وفاة خديجة تزوج النبي حسب العوائد العربية والطرق القبلية القديمة بعدة زوجات ليوحد العشائر المتنازعة من جهة ويعيل النساء من الجهة الأخرى ، أما عائشة فهي بنت صديق الرسول الحميم أبي بكر الذي أراد أن يوطد دعائم هذه الصداقة بالمصاهرة الكريمة .

الداخلية والمنازعات القبلية ، تأثير وأى تأثير على القضاء على نظام الثار القديم ، وتشجيع التجارة والصناعة . كذلك أدخلت فى تلك الفترة تغييرات ذات بال على نظام المعيشة ، وطرز اللبس ، ولا سيما الخالص منه بالنساء وأقلع الناس عن حرية الجاهلية الأولى واجتنبوا تعاطى الخمر والميسر ، وغدت الأخلاق تقاس بمعايير دقيقة صارمة وأفردت فى المنازل أجنحة خاصة بالنساء وهى عادة لم تكن مألوفاً من قبل .

---